محمد بن عبد الوهاب

(١١١٥ — ١٢٠٦ هـ) (١٧٠٣ — ١٧٩١ م)

هو زعيم الفرقة التى تسمى الوهابية ، وتعتنق مذهبه الحكومة الحاضرة فى الحجاز .

نشأ فى بلدة تسمى « العيينة » فى نجد ، وتعلم دروسه الأولى بها على رجال الدين من الحنابلة ، وسافر إلى المدينة ليتم تعلمه ؛ ثم طوّف فى كثير من بلاد العالم الإسلامى ، فأقام نحو أربع سنين فى البصرة ، وخمس سنين فى بغداد ، وسنة فى كردستان ، وسنتين فى همذان ؛ ثم رحل إلى أصفهان ودرس هناك فلسفة الإشراق والتصوف ، ثم رحل إلى « قم » ، ثم عاد إلى بلده واعتكف عن الناس نحو ثمانية أشهر ، ثم خرج عليهم بدعوته الجديدة .

وأهم مسألة شغلت ذهنه فى درسه ورحلاته مسألة التوحيد التى هى عماد الإسلام ، والتى تبلورت فى « لا إله إلا الله » ، والتى تميز الإسلام بها عما عداه ، والتى دعا إليها « محمد » ﷺ أصدق دعوة وأحرّها ؛ فلا أصنام ولا أوثان ، ولا عبادة آباء وأجداد ، ولا أحبار[1] ولا نحو ذلك . ومن أجل هذا سمى هو وأتباعه أنفسهم « بالموحّدين »؛ أما اسم الوهّابية فهو اسم أطلقه عليهم خصومهم، واستعمله الأوربيون ، ثم جرى على الألسن .

وقد رأى أثناء إقامته فى الحجاز ورحلاته إلى كثير من بلاد العالم الإسلامى أن هذا التوحيد الذى هو مزية الإسلام الكبرى قد ضاع ، ودخله كثير من الفساد .

فالتوحيد أساسه الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا العالم ، والمسيطر

---

(١) أحبار جمع حبر ، وهو رئيس الدين .

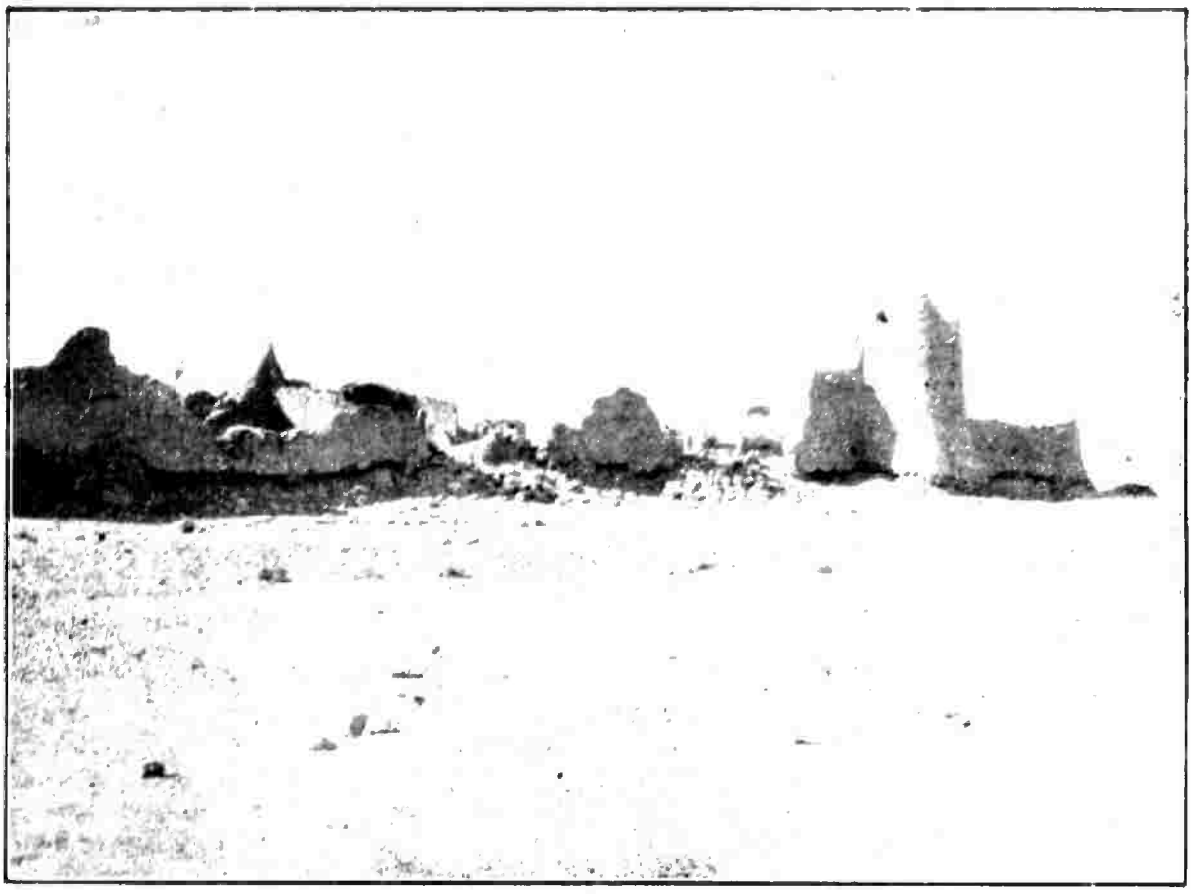

خرائب العيينة ، موطن الشيخ محمد بن عبد الوهاب

عليه ، وواضع قوانينه التى يسير عليها ، والمشرع له ، وليس فى الخلق من يشاركه فى خلقه ولا فى حكمه ، ولا من يعينه على تصريف أموره ؛ لأنه تعالى ليس فى حاجة إلى عون أحد مهما كان من المقربين إليه ؛ هو الذى بيده الحكم وحده، وهو الذى بيده النفع والضر وحده لا شريك له ؛ فمعنى لا إله إلا الله : ليس فى الوجود ذو سلطة حقيقية تسيِّر العالم وَفقاً لما وضع من قوانين إلا هو ، وليس فى الوجود من يستحق العبادة والتعظيم إلا هو ، وهذا هو محور القرآن : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » .

إذن فما بال العالم الإسلامىّ اليوم يعدل عن هذا التوحيد المطلق الخالص من كل شائبة إلى أن يشرك مع الله كثيراً من خلقه ؟ فهذه الأولياء يُحج إليها . وتقدم لها النذور . ويُعتقد أنهـــا قادرة على النفع والضر ؛ وهذه الأضرحة لا عِداد لها ، تقام فى جميع أقطاره ، يشدّ الناس إليها رحالهم ، ويتمسحون بها ، ويتذللون لها ، ويطلبون منها جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم ؛ ففى كل بلدة ولىّ أو أولياء ، وفى كل بلدة ضريح أو أضرحة تُشرك مع الله تعالى فى تصريف الأمور ودفع الأذى وجلب الخير . كأن الله سلطان من سلاطين الدنيا الغاشمين ، يُتقرب إليه بذوى الجاه عنده وأهل الزُّلْفَى[1] لديه ، ويُرجون فى إفساد القوانين وإبطال العدل ؛ أليس هذا كما كان يقول مشركو العرب: «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » وقولهم : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ؟ !

بل وأسفاه ! لم يكتف المسلمون بذلك ، بل أشركوا مع الله حتى النبات والجماد ؛ فهؤلاء أهل بلدة « منفوحة » باليمامة يعتقدون فى نخلة هناك أن لها قدرة

---

(١) الزلفى : التقرب .

عجيبة . مَن قصدها من العوانس تزوجت لعامها ؛ وهذا الغار فى « المرعية » يحج إليه الناس للتبرك . وفى كل بلدة من البلاد الإسلامية مثل هذا ؛ فنى مصر شجرة الحنفى ، ونعل الكلشنى ، وبوابة المتولى[1] ؛ وفى كل قطر حجر وشجر . فكيف يخلص التوحيد مع كل هذه العقائد ؟

إنها تصد الناس عن الله الواحد ، وتشرك معه غيره ، وتسىء إلى النفوس ، وتجعلها ذليلة وضيعة مخرفة ، وتجردها من فكرة التوحيد ، وتفقدها التسامى .

وأساس آخر يتصل بهذا التوحيد كان يفكر فيه « محمد بن عبد الوهاب » ، وهو أن الله وحده هو مشرِّع العقائد ، وهو وحده الذى يحلِّل ويحرّم ، فليس كلام أحد حجة فى الدين إلا كلام الله وسيد المرسلين ، فالله يقول : « أم لهم شركاء شَرَعُوا لهم من الدين ما لم يأذَن به الله » ؛ فكلام المتكلمين فى العقائد ، وكلام الفقهاء فى التحليل والتحريم ليس حجة علينا ؛ إنما إمامنا الكتاب والسنة ، وكل مستوف أدوات الاجتهاد له الحق أن يجتهد ؛ بل عليه أن يفعل ذلك ويستخرج من الأحكام — على حسب فهمه لنصوص الكتاب وما صح من السنة — ما يؤديه إليه اجتهاده . وإقفال باب الاجتهاد كان نكبة على المسلمين ؛ إذ أضاع شخصيتهم وقوّتهم على الفهم والحكم ؛ وجعلهم جامدين مقلِّدين يبحثون وراء جملة فى كتاب أو فتوى من مقلِّد مثلهم ؛ حتى انحط شأنهم وتفرقوا أحزاباً يلعن بعضهم بعضاً ؛ ولا مَنْجاة من هذا الشر إلا بإبطال هذا كله ، والرجوع إلى الدين فى أصوله ، والاستقاء من منبعه الأول .

وهكذا شغلت ذهنه فكرة التوحيد فى العقيدة مجردة من كل شريك ، وفكرة التوحيد فى التشريع ، فلا مصدر له إلا الكتاب والسنة .

---

(١) شجرة الحنفى : شجرة كانت فى جامع الحنفى يتبرك بها . ونعل الكلشنى : نعل قديمة فى تكية الكلشنى يزعمون أن الماء إذا شرب منها ينفع للتداوى من العشق . وبوابة المتولى مملوءة بالمسامير تعلق بها الشعور والخيوط ليذكر بالخير من علقها . وهكذا .

هذا هو أساس دعوة محمد بن عبد الوهاب ؛ وعلى هذا الأساس بنيت الجزئيات.

اقتفَى فى دعوته وتعاليمه عالِماً كبيراً ؛ ظهر فى القرن السابع الهجرى فى عهد السلطان الناصر هو « ابن تَيْمِيَة » ، وهو — مع أنه حنبلىّ — كان يقول بالاجتهاد ولو خالف الحنابلة ، وكان حُرَّ التفكير فى حدود الكتاب وصحيح السنة ، ذَلِق اللسان ، قوىّ الحجة ، شجاع القلب ، لا يخشى أحداً إلا الله ، ولا يعبأ بسجن مظلم ، ولا تعذيب مرهق ، فهاجم الفقهاء والمتصوِّفة ، ودعا إلى عدم زيارة القبور والأضرحة وهدمها ، وألف فى ذلك الرسائل الكثيرة ، ولم يعبأ إلا بما ورد فى الكتاب والسنة ، وخالف إمامه أحمد بن حنبل حين أداه اجتهاده إلى ذلك .

فيظهر أن « محمد بن عبد الوهاب » عرف ابن تيمية من طريق دراسته الحنبلية ، فأُعجِبَ به ، وعكف على كتبه ورسائله يكتبها ويدرسها . وفى المُتْحَف البريطانىّ بعض رسائل لابن تيمية مكتوبة بخط ابن عبد الوهاب ، فكان ابن تيمية إمامَه ومرشده وباعث تفكيره ، والموحى إليه بالاجتهاد والدعوة إلى الإصلاح .

دعا مثله إلى ردّ البدع والتوجّه بالعبادة والدعاء إلى الله وحده ، لا إلى المشايخ والأولياء والأضرحة ، ولا بوساطة توسُّل ولا شفاعة . وزيارةُ القبور إن كانت فللعظة والاعتبار ، لا للتوسل والاستشفاع ، فهم لا يملكون شيئاً بجانب الله وقوانينه الثابتة التى لا تتخلَّف والتى نظَّم الله بها كونه ، فالذبحُ للقبور والنذور لها والاستغاثة بها والسجود عندها شِرك لا يرضاه الله ، وهو هدم للتوحيد — الذى جاء به الإسلام — من أساسه ، ومِثل ذلك تجصيص القبور[1] وبناية الأضرحة وتشييد الأبنية عليها ، وكسوتها بالحرير المذهب وما إلى ذلك ، فكل هذه لا يعرفها الإسلام .

---

(١) طلاؤها بالجص .

فكانت دعوة ابن عبد الوهاب حربا على كل ما ابتدع بعد الإسلام الأول من عادات وتقاليد ، فلا اجتماع لقراءة مولد ، ولا احتفاء بزيارة قبور ، ولا خروج للنساء وراء الجنازة ، ولا إقامة أذكار يُغنى فيها ويُرْقص ، ولا « محمل » يُتبرك به ويتمسح ، ويحتفل به هـذا الاحتفال الضخم ، وهو ليس إلا أعواداً خشبية لا تضر ولا تنفع .

كل هذا مخالف للإسلام الصحيح يجب أن يزال ، ويجب أن نعود إلى الإسلام فى بساطته الأولى ، وطهارته ونقائه ، ووحدانيته واتصال العبد بربه من غير واسطة ولا شريك . فلا إله إلا الله معناها كل ذلك . والكتب المملوءة بالتوسلات كتب ضارة بالعقائد ، كدلائل الخيرات ؛ وما فى البردة من مثل قوله:

يا أكرم الخلق ما لى من ألوذ به سواك عند حدوث الحادث العمم[1]

وقوله :

إن لم تكن فى معادى آخذاً بيدى فضلا وإلا فقل يا زلّة القدم

وقوله :

فإن من جودك الدنيا وضرّتها ومن علومك علم اللوح والقلم[2]

ونحو ذلك ، أقوال فاسدة كاذبة . فلا التجاء إلا إلى الله ، ولا اعتماد فى الدنيا والآخرة إلا عليه .

لقد كان محمد بن عبد الوهاب ومن نحا نحوه يَرَون أن ضعف المسلمين اليوم وسقوط نفسيتهم ليس له من سبب إلا العقيدة . فقد كانت العقيدة الإسلامية فى أول عهدها صافية نقية من أى شرك . وكانت لا إله إلا الله معناها السمو بالنفس عن الأحجار والأوثان وعبادة العظماء وعدم الخوف من الموت فى سبيل الحق .

---

(١) العمم : الشامل .

(٢) ضرتها : أى الآخرة .

وعدم الخوف من استنكار المنكر والأمر بالمعروف مهما تبع ذلك من عذاب . ولا قيمة للحياة إلا إذا بذلت فى رفع لواء الحق ودفع الظلم ؛ وهذا هو الفرق الوحيد بين العرب فى الجاهلية والعرب فى الإسلام ، وبهذه العقيدة وحدها غَزَوْا وفتحوا وحكموا . ثم ماذا ؟ .

ثم لم يتغير شىء إلا العقيدة ، فتدنَّوْا من سموّ التوحيد إلى حضيض الشرك ، فتعددت آلهتهم من حجر وشجر وأعواد خشب وقبور أولياء ، وركنوا إلى ذلك فى حياتهم العامة ؛ فالزرع ينجح لرضا ولىّ ويخيب لغضبه ، والبقرة تحيا إذا نُذِرت للسيد البدوى أو مثله ، وتموت إذا لم تُنذَر ، وهكذا فى الأمراض والعلل والغنى والفقر ، كلها لا ترجع إلى قوانين الله الطبيعية ، وإنما ترجع إلى غضب الأرواح ورضاها . ومثل هـــذه النفوس الضعيفة التى تذل للحجر والشجر والأرواح ، لاتستطيع أن تقف أمام الولاة والحكام الظالمين تأمرهم بمعروف أو تنهاهم عن منكر ، فذلوا للحكام والاغنياء كما ذلوا للخشب والاحجار . وما زال كل قرن يمرّ تزداد معه الآلهة عدداً وتزداد النفوس ذلة ، حتى وصلت الحال بالأمة الإسلامية إلى فقد سيادتها ، وانهيار عزتها . ولا يصلح آخر الإسلام إلا بما صلح به أوله ، فلا بد من العودة إلى الحياة الإسلامية الأولى حيث التوحيد الصحيح والعزة الحقة ، ولا بد من هدم هذه البِدَع والخرافات باللين إن نجح ، وبالقوة إن لم ينجح ، والله المستعان .

لم ينظر محمد بن عبـد الوهاب إلى المدنية الحديثـة وموقف المسلمين منها ، ولم يتجه فى إصلاحه إلى الحياة المـادية كما فعل معاصره محمد على باشا ، وإنما اتجه إلى العقيدة وحدها والروح وحدها . فعنده أن العقيدة والروح هما الأساس وهما القلب ، إن صلحا صلح كل شىء ، وإن فسدا فسد كل شىء ، وطبيعى أن يكون هذا هو الفرق بين رئيس الدين فى نجد ورئيس الحكم فى مصر .

* * *

أما بعد ، فإن التوحيد الصحيح المطلق المجرد عن شائبة كل تجسيم ، المنزه عن كل تشخيص ، الذى يصل العبدَ بربه من غير وساطة ولا وسيلة ، مطلب عسير لا يستطيعه إلا الخاصة أو خاصة الخاصة . أما من عداهم فيشعرون بالتوحيد لحظات ثم سرعان مايتدهورون ، ويشوب عقيدَتهم نوع من التشخيص ، وأسلوب من التجسيم على نحو ما ، ثم يتخذون من الصالحين وسائل وزُلْفَى — كان ذلك فى الجاهلية ، وكان ذلك فى الإسلام بُعَيْدَ البَعثة إلى الآن .

فالمؤرخون يَروون أن أهل الطائف لما أسلموا كان لهم بَنِيَّة على اللات[1] ، فأمر النبى بهدمها ، فطلبوا منه أن يترك هدمها شهراً لئلا يروِّعوا نساءهم وصبيانهم حتى يُدخلوهم فى الدين ، فأبى ذلك عليهم وأرسل معهم المغيرة بن شُعبة وأبا سُفْيان ابن حَرب وأمرهما بهدمها .

وفى الحديث أن العرب كانت لهم فى الجاهلية شجرة تسمى « ذات أنواط » كانوا يعلقون بها سلاحهم ويعكفون حولها ويعظمونها ، فسأل بعض المسلمين رسول الله أن يجعل لهم كذلك « ذات أنواط » فنهاهم عن ذلك .

ولما جاء عمر شعر أن بعض الناس أخذ يحنّ إلى العادات الجاهلية القديمة ، فرآهم يأتون الشجرة التى بايع رسول الله ﷺ تحتها بيعة الرضوان فيصلون عندها ، فبلغ ذلك عمر فأمر بها فقطعت .

ولما رأى عمر كعب الأحبار يخلع نعله ويلمس برجليه الصخرة عند فتح بيت المقدس ، قال له : « ضاهيت والله اليهوديةَ يا كعب » .

وهكذا ما لبث بعض الناس حتى تراجع عن التوحيد المطلق الذى جاء به الإسلام ، لأن التحرير من المادة بأشكالها جميعاً ، والإفلات من قيود الحس ، والتسامى إلى الله فوق المادة وفوق الحس وفوق التشخيص ، يتطلب منزلة رفيعة من السموّ العقلى تعجز عنه الجماهير .

---

(١) بنية : كعبة . اللات : صنم .

وقال النبي ﷺ « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألاَ فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك » .

ثم سرعان ما اتخذ المسلمون قبور الصالحين وغير الصالحين مساجد ، ولم يكن الصحابة الأولون يشدون الرحال إلى المشاهد ، ثم كان ذلك ، وهكذا كلما مضى زمن كثرت فيه أصناف التعظيم للقبور والأضرحة وكثير من الأشجار والجماد .

وظهر الدعاة والمصلحون على توالى العصور يحاولون أن يردوا الناس عن هذا ويرجعوهم إلى التوحيد وحده ، وكلما دعا داع إلى ذلك عُذِّب وأُهين ورُمى بالكفر والإلحاد كما فُعل بابن تيمية ، فقد ألف الرسائل فى هذا الموضوع ، وانتقد حال المسلمين فى استغاثتهم بالقبور ورحيلهم إليها ، وطوافهم بالصخرة فى بيت المقدس ، ورحيلهم إلى مشهد الخليل ومشاهد عسقلان ، وتعظيمهم حتى بعض آثار النصرانية ، فعُذِّب وسجن ؛ وأتى بعده بقرون محمد بن عبد الوهاب هذا ، فدعا مثل هذه الدعوة فرمى بالكفر . وأخيراً جاء الشيخ محمد عبده فدعا إلى العدول عن التوسل والشفاعة والزيارة للقبور ، وملأ دروسه فى التفسير بمثل هذه الدعوة ، فلقى من أهل زمنه ما لم يغب عن أذهاننا بعد .

هذا هو جوهر الدعوة التى دعا بها محمد بن عبد الوهاب ، فماذا كان شأنها ومصيرها ؟

— ٢ —

كانت جزيرة العرب عندما دعا محمد بن عبد الوهاب دعوته — التى شرحناها فيما مضى — أشبه شىء بحالتها فى الجاهلية ، كل قبيلة تسكن موضعاً يرأسها أمير منها . هذا أمير فى الأحساء ، وهذا أمير فى العسير ، وهؤلاء أمراء فى نجد إلخ ، ولا علاقة بين الأمير والأمير إلا علاقة الخصومة غالباً . ثم تتوزعها — أيضاً —

الخصومة بين البدو والحَضَر، فمن قدَر من البدو على خطف شيء من الحَضَر فعل، ومن قدر من الحَضَر على التنكيل ببدو فعل؛ والطرق غير مأمونة، والسلب والنهب على أشدّهما، وسلطة الخلافة فى الآستانة تكاد تكون سلطة اسمية، ومظهرها تعيين الأشراف فى مكة وإمدادهم ببعض الجنود وكفى.

لقد بدأ «محمد بن عبد الوهاب» يدعو دعوته — التى ذكرناها — فى لين ورفق بين قومه. ثم أخذ يرسل الدعوة لأمراء الحجاز والعلماء فى الأقطار الأخرى حاثا لهم على استنهاض الهمم فى مكافحة البِدَع والرجوع إلى الإسلام الصحيح.

كم من المصلحين دَعَوْا مثل هـذه الدعوة، ولكنها مرّت بسلام، وإن شابها شيء فسِجن الداعى أو التشهير به، ورميه بالكفر أو الزندقة، ثم ينتهى الأمر ويعود الناس سيرتهم الأولى؛ بل نرى من قام بمثل هذه الدعوة — فعلا — فى المغرب كالشيخ أبى العباس التيجانى، فقد أمر بترك البدع ونهى عن زيارة القبور، وكثرت أتباعه حتى بلغت مئات الألوف، ولكن لم يلفت الناس والحكامَ أمرُه كما لفتهم محمد بن عبد الوهاب؛ وكذلك الشيخ محمد عبده دعا مثل هذه الدعوة فأجابه بعضهم، وأنكر عليه بعضهم، ثم أُسدل الستار. فما السبب فى نجاح الدعوة الوهابية دون الأخرى؟.

السبب فى هذا ما أحاط بالدعوة الوهابية من ظروف لم تتهيأ لغيرها.

فقد اضطُهد فى بلده العيينة، واضطُر أن يخرج منها إلى الدرعية مقرّ آل سعود، وهناك عرض دعوته على أميرها محمد بن سعود فقبلها، وتعاهدا على الدفاع عن الدين الصحيح ومحاربة البدع، ونشر الدعوة فى جميع جزيرة العرب باللسان عند من يقبلها، وبالسيف عند من لم يقبلها؛ وإذ ذاك دخلت الدعوة فى دور خطير، وهو اجتماع السيف واللسان، وزاد الأمر خطورةً نجاح الدعوة شيئاً فشيئاً، ودخول الناس أفواجاً فيها، وإخضاع بعض الأمراء بالقوة لحكمها،

وكلما دخلوا بلدة أزالوا البدع وأقاموا تعاليمهم ، حتى هددت الحركة كل جزيرة العرب . ولما مات الأمير ومات الشيخ تعاقد أبناء الأمير وأبناء الشيخ على أن يسيروا سيرة أبويهم فى نصرة الدعوة متكاتفين ، وظلوا يعملون حتى غَلَبُوا على مكة والمدينة .

وشعرت الدولة العثمانية بالخطر يهددها بخروج الحجاز من يدها ، وهو موطن الحرمين الشريفين اللذين يجعلان لها مركزاً إسلامياً ممتازاً ، تفقد الكثير منه إذا فقدتهما .

فأرسل السلطان محمود إلى محمد على باشا فى مصر أن يُسَيِّر جيوشه لمقاتلة الوهابيين ؛ وكما أرسلت الجيوش لمقاتلتهم أرسلت الدعاية من جميع الأقطار الإسلامية للنَّيل من هذه الدعوة وتكفير مبتدعيها . وحَمَل علماء المسلمين عليها حملات منكرة ، وأُلِّفت الكتب الكثيرة فى التخويف منها والتشنيع عليها .

وهكذا حدثت الحرب بالسيف والحرب بالكلام ، كل هذا خدم الدعوة الوهابية بلفت الأنظار إليها ، ودورانها على كل لسان . وزاد فى شأنها أن الوهابيين انتصروا على حملة محمد على الأولى بقيادة الأمير طوسون .

ثم أعدّ محمد على العُدة القوية الكبيرة ، وسار بنفسه وحاربهم بخير سلاحه ، فانتصر عليهم ، وأتم النصر ابنه إبرهيم باشا ، وانهزمت قوة الوهابيين .

ولكن بقيت الدعوة إلى أن هُيِّئ لها فى العهد الحاضر المملكة السعودية الحاضرة فى تاريخ طويل لا يعنينا هنا ، وإنما يهمنا الدعوة وما تم لها .

إن الدعاية التى أحكمت ضدها ، وتعلق الناس بالدولة العثمانية ، وميلهم الشديد أن تظل بلادها وحدة لا ينفصل عنها جزء ، جعلت عامة المسلمين فى أقطار العالم الإسلامي يفرحون بهزيمة الوهابية ، ولو لم يفهموا جوهر دعوتها . وشىء آخر كان كبير الأثر فى تنفير عامة المسلمين من هذه الحركة ، وهو أنها

حيث استولت على بلد نفذت تعاليمها بالقوة ولم تنتظر حتى يؤمن الناس بدعوتها ؛ فلما دخلوا مكة هدموا كثيراً من القِبَابِ الأثرية ، كقبة السيدة خديجة ، وقبة مولد النبي ﷺ ، ومولد أبي بكر وعليّ ؛ ولما دخلوا المدينة رفعوا بعض الحلى والزينة التي كانت على قبر الرسول ؛ فهذه كلها أثارت غضب كثير من الناس وجرحت عواطفهم . فمنهم من حزن على ضياع معالم التاريخ . ومنهم من حزن على الفن الإسلامى . ومنهم من حَزِن لأن مقبرة الرسول ﷺ وفخامتها مظهر للعاطفة الإسلامية وقوة الدولة ؛ وهكذا اختلفت الأسباب واشتركوا فى الغضب . والوهابيون لم يعبئوا إلا بإزالة البدع والرجوع بالدين إلى أصله .

قد اهتموا بالناحية الدينية وتقوية العقيدة وبالناحية الخلقية كما صورها الدين . ولذلك حيث سادوا قلت السرقة والفجور وشرب الخمور وأُمِّن الطريق وما إلى ذلك ؛ ولكنهم لم يَمسوا الحياة العقلية ولم يعملوا على ترقيتها إلا فى دائرة التعليم الدينى . ولم ينظروا إلى مشاكل المدنيّة الحاضرة ومطالبها . وكان كثير منهم يرون أن ما عدا قطرهم من الأقطار الإسلامية التى تنتشر فيها البِدَع ليست ممالك إسلامية . وأن دارهم دار جهاد ؛ فلما تولت حكومة ابن سعود الحاضرة كان لا بد أن تواجه هـذه الظروف ، وتقف أمام منطق الحوادث . ورأت نفسها أمام قوتين قويتين لا مَعْدَى[1] لها عن مسايرتهما : قوة رجال الدين فى نجد المتمسكين أشد التمسك بتعاليم ابن عبد الوهاب والمتشددين أمام كل جديد فكانوا يَرَون أن التلغراف السلكى واللاسلكى والسيارات والعجلات من البدع التى لا يرضى عنها الدين . وقوة التيار المدنىّ الذى يتطلب نظام الحكم فيه كثيراً من وسائل المدنية الحديثة كما يتطلب المصانعة والمداراة . فاختطت لنفسها طريقاً وسَطاً شاقًّا بين القوتين . فقد عدلت نظرها إلى الأقطار الإسلامية الأخرى وعدّتهم مسلمين .

---

(١) لا معدى : لا بد .

وبدأت تنشر التعليم المدنى بجانب التعليم الدينى ، وتنظم الإدارة الحكومية على شىء من النَّمَط الحديث . وتسمح للسيارات والطيارات واللاسلكى بدخول البلاد واستعمالها وما إلى ذلك . وما أشقه عملا : التوفيق بين علماء نجد ومقتضيات الزمن ، وبين طبائع البادية ومطالب الحضارة .

* * *

لم تقتصر الدعوة الوهابية على الحجاز والجزيرة العربية ، بل تعدَّتها إلى غيرها من كثير من الأقطار الإسلامية . وكان موسم الحج ميداناً صالحاً وفرصة سانحة لعرض الدعوة على أكابر الحجاج واستمالتهم إلى قبولها . فإذا عادوا إلى بلادهم دعَوا إليها . فنرى فى زنجبار طائفة كبيرة من المسلمين يعتنقون هذا المذهب ، ويدعون إلى ترك البدع . وعدم التقرُّب بالأولياء .

وقام فى الهند زعيم وهابى اسمه السيد أحمد . حج سنة ١٨٢٢ م ، وهناك آمن بالمذهب الوهابى ، وعاد إلى بلاده ، فنشر هذه الدعوة فى بنجاب وأنشأ بها شبه دولة وهابية ، وأخذ سلطانه يمتد حتى هدد شمال الهند ، وأقام حرباً عَوانا[1] على البدع والخرافات . وهاجم الوعاظ ورجال الدين هناك . وأعلن الجهاد ضد من لم يعتنق مذهبه ويقبل دعوته ، وأن الهند دار حرب ؛ ولقيت الحكومة الإنجليزية متاعب كثيرة شاقّة من أتباعه حتى استطاعت إخضاعهم .

وكذلك حضر الإمام السنوسىّ مكة حاجًّا ، وسمع الدعوة الوهابية واعتنقها ، وعاد إلى الجزائر يبشر بها ، ويؤسس طريقته الخاصة فى بلاد المغرب كما سيأتى بيانه .

وفى اليمن ظهر أعلم علمائه ، وإمام أئمته وهو الإمام الشَّوْكانى المولود سنة ١١٧٢ هـ . فسار على هذا النهج نفسه ، وإن لم يتلقَّه عن ابن عبد الوهاب ، وألّف كتابه القيِّم « نَيْل الأوطار » شارحاً فيه كتاب ابن تيمية « مُنتقى الأخبار » ،

(١) عواناً : متكررة ، مشتدة .

عارضاً الأحاديث النبوية ، مجتهداً فى فهمها ، وفى استنباط الأحكام الشرعية منها ولو خالف المذاهب الأربعة كلها ؛ وحارب التقليد ودعا إلى الاجتهاد وثارت من أجل ذلك حرب كلامية شعواء[1] بينه و بين علماء زمنه ، كان أشدها فى صَنعاء . وألف فى ذلك رسالة سماها « القول المفيد فى حكم التقليد » ؛ ودعا فى قوة إلى عدم زيارة القبور والتوسل بها ، فقال فى نيل الأوطار[2] : « وكم سَرَى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكى لها الإسلام ، (منها) اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام ، وعَظُمَ ذلك فظنوا أنها قادرة على جَلْب النفع ودفع الضرر ؛ فجعلوها مقصِداً لطلب قضاء الحوائج وملجأ لنُجح المطالب ، وسألوا منها مايسأل العباد من ربهم ، وشدّوا إليها الرحال وتمسحوا بها واستغاثوا . وبالجملة فإنهم لم يدعوا شيئاً مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه ، فإنا لله و إنا إليه راجعون .

« ومع هذا النُّكر الشنيع والكفر الفظيع ، لا نجد من يغضب لله ، و يغار حميّة للدين الحنيف لا عالماً ولا متعلماً ، ولا أميراً ولا وزيراً ولا ملكا ، وقد توارد إلينا من الأخبار ما لا يُشك معه أن كثيراً من هؤلاء القبوريّين أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من قِبل خصمه حلف بالله فاجراً ، فإذا قيل له بعد ذلك : احلف بشيخك ومعتقَدك الولىّ الفلانى تلعثم وتلكّأ ، وأبى واعترف بالحق ؛ وهذا من أبْيَنِ الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال إنه تعالى ثانى اثنين وثالث ثلاثة .

« فيا علماء الدين ، ويا ملوك المسلمين ، أىّ رزء للإسلام أشدُّ من الكفر ، وأىُّ بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله ، وأى مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة ، وأى منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك المبين ؟ »

---

(١) شعواء : منتشرة ، ممتدة .

(٢) جزء ٣ ص ١٣٤ من الطبعة الأميرية .

وقد مات الإمام الشوكانى سنة ١٢٥٠ بعد أن أبلى فى هذا بلاء عظيما ، وخلّف تلاميذ كثيرين يدينون برأيه .

وفى مصر شبّ الشيخ محمد عبده فرأى تعاليم ابن عبد الوهاب تملأ الجو ، فرجع إلى هذه التعاليم فى أصولها من عهد الرسول إلى عهد ابن تيمية ، إلى عهد ابن عبد الوهاب ؛ وكان أكبر أمله أن يقوم فى حياته للمسلمين بعمل صالح ، فأداه اجتهاده و بحثه إلى هذين الأساسين اللذين بنى عليهما محمد بن عبد الوهاب تعاليمه وهما: (١) محاربة البدع وما دخل على العقيدة الإسلامية من فساد بإشراك الأولياء والقبور والأضرحة مع الله تعالى ، و (٢) فتح باب الاجتهاد الذى أغلقه ضعاف العقول من المقلدين ، وجرّد نفسه لخدمة هذين الغرضين ، ولكنه امتاز بميزة كبرى عمن عداه ، وهى ثقافته الواسعة الدينية والدنيوية ، ومعرفته بشؤون الدنيا وأسسها وتياراتها ، وذلك بتربيته الدينية الأولى المستمرة ، وبانغماسه فى الأمور السياسية واطلاعه على الثقافة الفرنسية ، ورحلاته إلى أوربة يخالط علماءها وفلاسفتها وساستها . فلما تعرّض لمثل ما تعرض له ابن عبد الوهاب فلسف الدعوة وركّزها على أسس نفسية واجتماعية ، كما شارك فى تركيزها على الأسس الدينية ؛ ففى دروسه فى التفسير التى كان يلقيها فى الرواق العباسى بالأزهر ، كان ينتهز كل إشارة لآية ولو من بعيد تنددّ بالشرك فيفيض فى الحملة على عبادة الصالحين ، وزيارة القبور والشفاعة والتوسل وما إلى ذلك . فيطيل الوقوف — مثلا — عند قوله تعالى : « وَمِنَ الناسِ من يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنوا أَشَدُّ حُبًّا لله وَلَوْ يَرَ الذين ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ القُوَّةَ لله جميعاً ، وَأَنَّ اللهَ شديدُ العذاب » ، فيقسّم الشيخ الأنداد إلى قسمين : هؤلاء الشفعاء الذين اتخذهم الناس وسيلة للقرب من الله يستقضونهم فى الحوائج ، وهؤلاء الذين يقلّدون فى الدين ويتخذ قولهم شرعاً من غير حجة ولا برهان . وتظهر فلسفته

للمذهب فى بيان الأضرار النفسية من هذه العقائد ، فهى تُورث الذل وتخضع الناس للحكام الظالمين ، وتَحُطّ النفوس إلى الدَّرْكِ الأسفل ، ثم هى تضر اجتماعيًّا باعتماد الناس على هؤلاء الأولياء بتركهم القوانين الطبيعية التى جعلها الله أسباباً لابد منها لحصول المسبَّب . فالزراعة إنما تنجح بالحرث والتسميد والبَذْر والسَّقْى ، لا بالاستغاثة بولىّ ؛ والحرب إنما تكسب باتخاذ سلاح مجهز على آخر طراز كسلاح العدو ، وإعداد العدة الكاملة كما يفعل العدو ، لا بالاستعانة بأهل القبور . وفضيلة المسلم أن يستعينَ بعد ذلك كله بالله وحده ، يطلب منه أن يثبِّت قلبه ، ويلهمه التوفيق . وهكذا كان يُفِيض فى هذين الأساسين مفنِّداً آراء من يقول بالتوسل والشفاعة والتقليد .

وينتهز فرصة وجود جماعة من العلماء عنده فى يوم مولد النبى ، ودعوته للعَشاء عند أحد المحتفلين ، فيبين لهم أن هذه الموالد كلها منكرات ، ويتمنّى لو أُنفِق ما يُصرف فى الموالد على تعليم الفقراء ، ويناظرهم فى ذلك مناظرة تنتهى بانصراف العلماء إلى العشاء فى المولد ، وامتناع الشيخ وحده .

ويضع الشيخ تفسيراً لجزء « عَمَّ » للناشئة فيلتمس كل وسيلة للحملة على كل مايشوب التوحيد من شِرك بعبادة المشايخ والقبور والأضرحة والتخريف ، راجياً أن ينشأ الشباب نشأة دينية صحيحة خيراً مما عليه آباؤهم — وأعانه فى هذه السبيل تلميذه وصديقه السيد محمد رشيد رضا فى مجلة المنار ، فقد ملأها كذلك بمثل هذه الدعوة ومثل هذه الحجج ، يُسمِع بها المسلمين فى جميع الأقطار الإسلامية .

وفى تركيا قامت الحكومة التركية الكمالية بمحاربة هذه البدع والخرافات فأغلقت التكايا وكانت عش التدجيل ، وطاردت المشايخ ، واضطهدت المهرِّجين ؛ ولكن الفرق بين هذه الحركة وماقبلها أن كل الحركات السابقة كانت مؤسسة على الدين والإصلاح الدينى ، والرجوع إلى الأصول الدينية ، أما هذه الحركة

فمؤسسة على العقـل المطلق ، وفكرة الإصلاح الاجتماعى من غير أن يكون الدافع إليها الرغبة فى الإصلاح الدينى .

* * *

وأخيراً وقد مضى على هذه الدعوة الإصلاحية من عهد محمد بن عبد الوهاب إلى الآن عشرات السنين ، واشترك فى تنظيم الغزوة عشرات من الأبطال ، فماذا كانت النتيجة ؟

ظلت عامة المسلمين فى جميع الأقطار الإسلامية — كما هم — من حيث الالتجاء فى قضاء الحوائج إلى المشايخ والقبور والأضرحة ، وظلت على عادتها فى الاحتفال بالموالد ونحوها وإن قل بهاؤها ورونقها ، وإنما تأثر بهذه الدعوة الخاصةُ أو خاصة الخاصة . كما تأثر بها ناشئة الشباب المثقفين بحكم ثقافتهم ونموِّ عقليتهم ؛ فلم يلجئوا إلى المزارات والمشايخ كما كان يلجأ آباؤهم ؛ ولكن أخشى ألا يكون كثير منهم يلجأ إلى الله أيضاً كما كان يلجأ آباؤهم .

والآن ننتقل إلى نوع آخر من الإصلاح كان مظهره مدحت باشا فى تركيا .